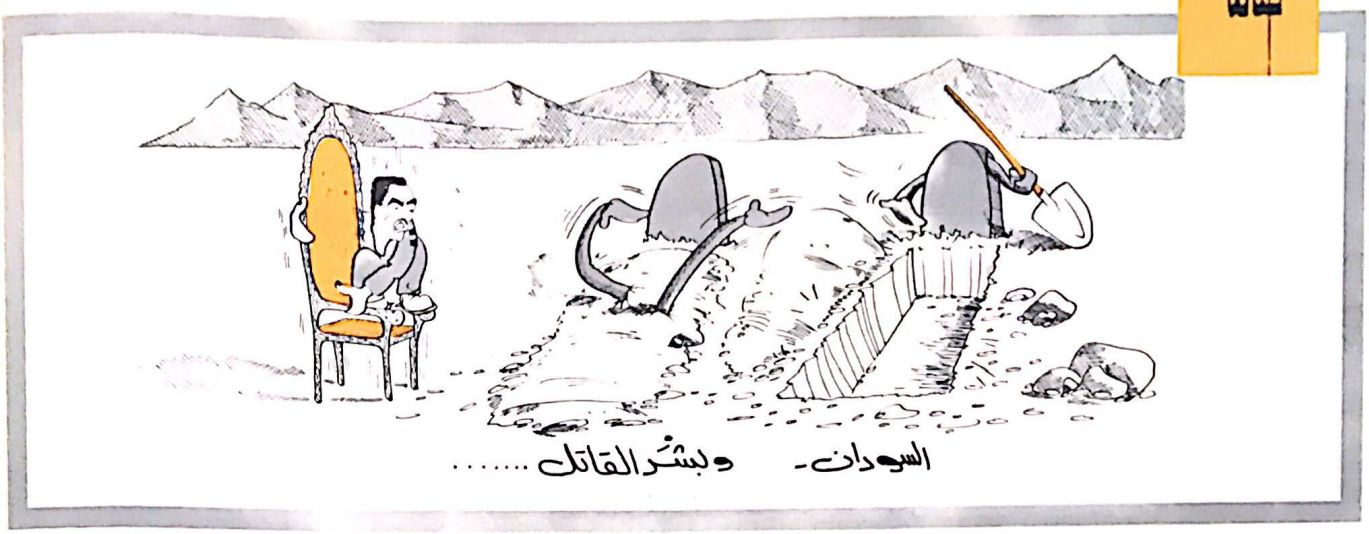

توفيق قباني ناصر الثورة الفلسطينية وساندها بعقله وفنه. توفي توفيق قبل ان تزهر مناصرته رصاصا في صدر العدو او مبضعاً يبلسم جرح مناضل رثاه أبوه ومن افضل من ابيه راثيا له . تكريما للصديق الراحل وللصديق المقيم تنشر الهدف رثاء نزار قباني لولده توفيق . « عن الاسبوع العربي » .

كان ولدي... فصار ولدكم

بقلم: نزار قباني

كان ولدي .. فصار ولدكم

١ في العاشر من شهر اب . مات ابني توفيق في لندن . توقف قلبه عن العمل . كما يتوقف قلب طائر النورس عن الضرب . وهو على بعد خطوتين من الشمس ..

كان توفيق اميرا دمشقيا جميلا ..

كان طويلا كالزرافة . وشفافا كالدمعة . وعالي الراس كصواري المراكب . وكانت تتبعه اذا مشى . ازهار اللوتس . وشقائق النعمان . وغزلان الصحراء .

٢ هل الموت رجل . ام هو امراة ؟

لو اكن اناقش جنس الموت من قبل .

ولكن بعد ان ذهب توفيق . بكل وسامته . وملاحته . وصورته الدمشقية . ادركت ان الموت امراة .. ربطت خصلات شعرها الاشقر بمنديلها الحريري .. وخطفته الى بيتها قبل ان تخطفه واحدة من بنات الارض .

فيا سيدتي التي ذهبتي ولدي في غرفة نومك التي ستاثرها غمام . وشراشفها غمام . ومخداتها غمام .

لا اعتراض لي على زواج توفيق مثلك ..

فانا اب عصري احترم العشق . واقف مع العشاق في جميع معاركهم . ولكن من حقي - كاب - ان اعقد ربطة عنق توفيق في ليلة عرسه ...

٣ انني انحني امام رهافة ذوقك . وروعة حنانك . يا من تستحمين الان مع ولدي في مياه السحب البنفسجية .. وتقطفين له الفاكهه من بساتين الله ..

ليس في نيتي ان اذهب الى المحاكم . واقيم عليك الدعوى بتهمة اختطاف طالب في السنة الثالثة من كلية الطب .

انني اعرف سلفا ان دعواي مردودة . وان جميع القضاة في العالم - اذا راوا صورة توفيق معك - حكموا لك بالبراءة .. وحكموا علي بالصبر ..

انني اعرف سلفا انك لن تعيديه الي ..

من ذا الذي يختطف ملكا خرافي الملامح مثل توفيق . ويرضى ان يعيده الى العرش ؟

٤ كنت اتصور ان موت ابني هو قضية خصوصية بيني وبينه .. لكن الذي حدث كذب جميع تصوراتي .

فما ان خرج توفيق من بيتي حتى اذفتحت امامه ابواب جميع البيوت في العالم العربي .

وما ان ترك توفيق منزل الابوة . حتى صار له الاف الاباء والامهات في كل مكان من هذا الوطن العظيم .

في دمشق اعطوه سريرا . وفي لبنان كتبود على اكواز الصنوبر ودفاتر الثلج . وفي مصر اهدوه اغلى ما في خان الخليلي من مصاحف . وفي بغداد اطعموه المن والسلوى . وفي السعودية لفوه بعباءة فيها شيء من انفاس الرسول . وفي السودان قدموا له عروسا بلون النحاس وخشب الابنوس . وفي الاردن وضعوا حول عنقه طوقا من ياسمين اريحا . وفي الكويت والبحرين اهداه صيادو اللؤلؤ اكبر لؤلؤة وجدوها في اعماق البحر .

٥ آه .. ما اروع الموت بين العرب ... ومع العرب ...

آه ما اروع الانتماء الى القبيلة !

ان موت توفيق اعادني بدويا مغرقا في بداوته . وردني مرة اخرى الى بني هاشم ، وبني تغلب . وبني مخزوم . وبني تميم . وبني شيبان .

والى كل ابناء العمومة والخؤولة الذين يقتسمون معك حياتك . ويقتسمون موتك ..

اما هناك .. اما في لندن .. فان الموت اعلان مدفوع الاجرة في جريدة «التايمز» . والميت زجاجة حليب فارغة مرمية في الشوارع الخلفية .

٦ ممرضتك الاسبانية في السان جورج هوسبيتال في لندن تبكي بطريقتها الاندلسية ...

نحن نبكي عليك بطريقتنا العربية ..

والانكليز يتفرجون على دموعنا كما يتفرجون على نوافير الماء في البيكاديللي سيركس ...

اكان لا بد لهذه الاسبانية ان تجيء الى لندن لتزرع اول زهرة حزن في اواني السان جورج هوسبيتال ؟

اكان لا بد لها ان تقنع الانكليز .. ان الانسان هو حيوان يبكي ؟

٧ يا ليتكم حضرتم عرس توفيق في دمشق .

كل الياسمين الدمشقي رفعت اعناقها لترى توفيق..

كل حمائم الجامع الاموي فرشت تحت راسه اجنحتها البيضاء ..

كل اشجار الورد البلدي في غوطة الشام . تركت بساتينها وركضت حافية لتعانقه ...

كل العصافير التي من عمر توفيق . والتي ولدت معه . وكبرت معه . وذهبت الى المدرسة معه ... رافقت طائرته وهي تنزل ... تنزل ... تنزل كالدمعة على خد دمشق ...

٨ كنت كلما سالته عن قلبه . اخرج قلما احمر ..وورقة... ورسم لي قلبه بشكل وردة جورية.

كان يشرح لي علته بعقلية الطبيب ..

وكنت اعرف - كشاعر - ان عمر الورد الجوري قصير ...

٩ المكاتيب التي ارسلها توفيق من هناك .. والصق عليها طوابع تمثل مشاهد من الجنة ... تؤكد لي انه بخير ..

كل ما حدث . انه غير محل اقامته ...

كان في ضيافتي . فصار في ضيافتكم ..

كان ولدي . فصار ولدكم .

كان قصيدة حياتي . فصار قصيدة حياتكم .

كان له سرير بين اجفاني . فصار له سرير بين اجفانكم .

كان حوار سفره سوريا . فصار حوار سفره عربيا ...

١٠ فيا من جعلتم موت ولدي موتا عربيا ..

يا من صرختم معي . وبكيتم معي . وابحرتم معي الى مرافىء الحزن ...

يا من زرعتم سعف النخل . واغصان الآس على قبر ولدي ..

ارجو ان تعتنوا بهذا الامير الدمشقي الجميل الذي كان طويلا كالزرافة . وعالي الراس كصواري المراكب ..

وان تشتروا له اقلاما ملونة .. فقد كان يحب الرسم ...